تقرير

خليل حرب
Khalilharb66@gmail.com

سوريا ـ الشرع بين حضنين: السعودي العربي أم التركي؟

اختيار الرئيس الانتقالي في سوريا احمد الشرع السعودية اولا، ثم تركيا ثانيا، في اولى زياراته الخارجية بصفته القيادية الجديدة، يحمل دلالات كبيرة وتعكس ايضا اهتمام الرياض وانقرة بالمشهد المستجد في دمشق، لكن يبدو ان تركيا رجب طيب اردوغان ستقطف قبل الجميع الثمار السورية التي تشتهيها

في 2 شباط 2025، حط الشرع المعروف باسم ابومحمد الجولاني في الرياض للقاء ولي العهد السعودي الامير محمد بن سلمان، وذلك بعد ايام قليلة على اعلان الادارة السورية الجديدة تولي الشرع رئاسة سوريا خلال المرحلة الانتقالية، اضافة الى قرارات اخرى بحل الفصائل المسلحة والاجهزة الامنية ومجلس الشعب وحزب البعث، والغاء العمل بالدستور، بعد الاطاحة بنظام بشار الاسد في 8 كانون الاول الماضي.

من الواضح ان النظام الجديد في دمشق يبحث عن تعزيز شرعيته العربية التي لم يحصل عليها بالمستوى المتوقع طوال 60 يوما على اعلى مستوى، سوى من قطر التي قام اميرها الشيخ تميم بن حمد ال ثاني بزيارة سوريا، ما ان تم الاعلان عن اسناد منصب الرئاسة للشرع، ليكون بذلك اول زعيم عربي يزور دمشق في مرحلة ما بعد الاسد.

لم تكن زيارة الشرع الى الرياض مفاجئة، ذلك ان وزير الخارجية السعودي الامير فيصل بن فرحان جاء الى دمشق في 24 كانون الثاني، بعد الزيارة الاولى لوزير الخارجية السوري الجديد اسعد الشيباني الى الرياض في بداية الشهر نفسه، وقد مهدتا على ما يبدو لزيارة الرئيس السوري للمرحلة الموقتة الى العاصمة السعودية. من المهم التذكير بأن المملكة اعادت افتتاح سفارتها في دمشق، قبل 3 شهور فقط من سقوط الاسد.

مع ذلك، فان اختيار الشرع للرياض لتكون المحطة الاولى في زياراته الخارجية لها دلالتها، ذلك ان المملكة السعودية بدت حذرة من هويات القيادات العسكرية وولاءاتها وافكارها التي سيطرت على الحكم السوري، على من ارتباط العديد منها، حاليا وسابقا، بتنظيمات وجماعات مصنفة ارهابية، بما في ذلك "جبهة النصرة" التي كان الشرع يقودها، وبدل اسمها لاحقا الى "هيئة تحرير الشام".

لكن التوجس السعودي الموازي، قد يكون بحسب ما يقول مراقبون، مرتبطا بسلوك تركيا التي تصرفت منذ اللحظة الاولى لسقوط نظام الاسد، وكأنها الرابح الاكبر، وهي ربما تكون كذلك بالفعل.

في كل الاحوال، ان زيارة الشرع الى السعودية ومحادثاته مع الامير محمد بن سلمان، الى جانب حفاوة الاستقبال، لم يتبعها اي اعلان عن توقيع اتفاقات او معاهدات او صفقات اقتصادية، فيما اكتفت وكالة الانباء السعودية بالقول ان الزعيمين بحثا "مستجدات الاحداث في سوريا والسبل الرامية لدعم امن واستقرار سوريا الشقيقة"، وناقشا اوجه العلاقات الثنائية وفرص تعزيزها في مختلف المجالات، الى جانب استعراض تطورات الاوضاع الاقليمية. اما الشرع فقد قال في بيان باسمه "اجرينا اجتماعا مطولا لمسنا وسمعنا من خلاله رغبة حقيقية لدعم سوريا في بناء مستقبلها، وحرصا على دعم ارادة الشعب السوري ووحدة وسلامة اراضيه"، وان المحادثات شملت كل المجالات وعملنا على رفع مستوى التواصل والتعاون في الصعد كافة، لاسيما الانسانية والاقتصادية، حيث ناقشنا خططا مستقبلية موسعة في مجالات الطاقة والتعليم والصحة لنصل معا الى شراكة حقيقية تهدف الى حفظ السلام والاستقرار في المنطقة.

واشار الشرع الى "استمرار التعاون السياسي والديبلوماسي تعزيزا لدور سوريا بازاء المواقف والقضايا العربية والعالمية".

ولفتت خطوة اداء مراسم العمرة، رغم رمزيتها، الكثير من الانتباه. اما العناصر البارزة للاهتمام السعودي بسوريا الجديدة، تجلت في المواقف التي اعلنها وزير الخارجية بن فرحان في دمشق والتي اشار فيها الى ان المملكة تجري محادثات مع اوروبا والولايات المتحدة للمساعدة في رفع كل العقوبات عن سوريا، واشادته بما وصفه بانه "انفتاح" السلطات السورية الجديدة على كل شرائح المجتمع. لكن نظيره السوري الشيباني كان اكثر وضوحا، حيث انه بالاضافة الى دعوته لرفع العقوبات، اكد الحاجة الى "تعاون ودعم الاشقاء العرب في مسيرتنا المقبلة"، مشددا على ان سوريا جزء جامعة الدول العربية "وننتظر عقد اول اجتماع للجامعة للمشاركة فيه"، مضيفا ان دمشق تطمح الى ان تكون جزءا من مشروع عربي مشترك يحقق الامن والاستقرار في المنطقة.

بهذا المعنى، فان "دمشق الشرع" تقوم بعملية اعادة تموضع جيوسياسية، تبعدها عن الموقع الذي تموضعت فيه "دمشق الاسد"، او بكلام اكثر دقة، تواصل اعادة التموضع التي كان استهلها النظام السابق خلال العامين الماضيين على الاقل، من خلال ظواهر عدة: التضييق على الحضور الايراني في سوريا وعلى نشاط الحرس الثوري، النأي بالنفس عن حرب غزة وحرب جبهات الاسناد، عودة الحرارة نسبيا الى علاقات نظام الاسد مع المنظومة العربية من خلال اعادة فتح سفارات عربية (بينها السعودية) في دمشق، وتجدد زيارات الاسد الى عواصم عربية وخصوصا الرياض وابوظبي.

تحالف رباعي؟

تقول مصادر تركية ان تركيا والاردن والعراق وسوريا اتفقت على تشكيل تحالف رباعي ضد تنظيم داعش، الى جانب هدف آخر ترمي اليه انقرة وهو وقف الدعم الاميركي لـ"وحدات حماية الشعب" الكردية التي تعتبرها ذراع حزب العمال الكردستاني في سوريا، والتي تقود قوات سوريا الديموقراطية (قسد).

وبحسب صحيفة "الشرق الاوسط"، فان الدول الاربع ستعقد اول اجتماعاتها في عمان، على مستوى وزراء الخارجية والدفاع ورؤساء اجهزة المخابرات، وان الهدف التركي هو تطويق حزب العمال الكردستاني عبر جهود الدول الاربع. وزير الخارجية التركي حقان فيدان يقول ان التخلص من حزب العمال الكردستاني من اولويات انقرة، وانه مصلحة للعراق وسوريا والاكراد عموما.

مع ذلك، يبقى ذهاب الشرع الى الرياض مهما، ولا ترتبط المسالة فقط بالثقل الاقتصادي والسياسي والديني الذي تتمتع به المملكة، وانما ايضا بأهمية الا يظهر الحكام الجدد في دمشق انهم في الاحضان التركية بالكامل، وانهم يراهنون على التقارب مع المحيط العربي خصوصا الذي تمثله السعودية، على الرغم من ان هناك علامات واضحة من التحفظ والتوجس ظاهرة في كل من بغداد وابوظبي والقاهرة.

هناك رمزية اضافية لذهاب الشرع الى السعودية حيث انه ولد فيها. كما ان زيارته تزامنت مع تأهب رئيس وزراء اسرائيل بنيامين نتنياهو للقيام بأول زيارة خارجية له منذ اصدار مذكرة اعتقال في حقه من جانب المحكمة الجنائية الدولية كمجرم حرب، وذلك لعقد لقائه الاول مع "ترامب الثاني" في البيت الابيض. لهذا، ولاسباب اخرى كثيرة، كان من المنطقي ان يتوجه الشرع مباشرة بعد محطته السعودية الى انقرة.

صحيح ان الشرع ذهب الى انقرة في 4 شباط، الماضي، الا ان الاتراك كانوا اول الواصلين الاقليميين الى دمشق بعد سقوط الاسد، ومن خلال اكثر من زيارة قام بها وزير الخارجية حقان فيدان، ورئيس الاستخبارات ابراهيم كالين، في اطار مهمات وصفت بأنها محاولة تركية للامساك بخيوط اللعبة والمشهد السوري منذ اللحظات الاولى، بخلاف التهليل التركي لسقوط الاسد، والتأكيد على دور تركيا في هذا التحول الاقليمي الاستراتيجي.

لكن الاهم كما قال العديد من المراقبين ان هذه الزيارات المتبادلة، ركزت على حماية وضمان مصالح اوسع لتركيا في سوريا الجديدة، وهي كبيرة ومتعددة، في المجالات السياسية والاقتصادية والامنية. ولعل تصريحات الرئيس اردوغان خلال زيارة الشرع الى انقرة، تعبر عن ذلك بشكل كبير، حيث قال "نحن مستعدون لأن نقدم الى سوريا كل الدعم الضروري لمكافحة كل اشكال الارهاب، سواء تعلق الامر بما يعرف بتنظيم داعش او بحزب العمال الكردستاني"، مشيرا الى انه ناقش مع ضيفه الخطوات التي يتحتم اتخاذها ضد المسلحين الاكراد في شمال شرق سوريا، وهو ما بدا تذكيرا من جانب ◄

تمديد للاحتلال في العراق؟

هناك بعض التقديرات العراقية والغربية بأن الحكومة العراقية قد تعيد النظر في الاتفاق المبرم مع الولايات المتحدة لاستكمال انهاء مهمة التحالف الدولي والقوات الاميركية في العراق والذي كان يفترض ان يستكمل في العام 2026، وذلك في ظل التطورات السورية، ووجود العديد من الفصائل الجهادية على الاراضي السورية، وتزايد المخاوف ايضا من احتمال احياء تنظيم داعش بسبب الاف المعتقلين منهم في قبضة الفصائل الكردية السورية، والخشية من احتمال فرارهم او تهريبهم عمدا، فيما لو شنت تركيا او فصائل "هيئة تحرير الشام" هجوما كبيرا لمحاربة الاكراد او حزب العمال الكردستاني.

وتنقل وكالة "اسوشييتد برس" الاميركية عن مسؤول كبير في وزارة الدفاع الاميركية قوله انه منذ سقوط نظام الاسد، طلب مسؤولون في الحكومة العراقية "بشكل غير رسمي وعلى اعلى المستويات" تأجيل انهاء مهمة التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة لمكافحة تنظيم داعش في العراق، وكذلك تأجيل انسحاب القوات الاميركية من البلاد.

وقال وزير الدفاع العراقي ثابت العباسي في ايلول 2024، ان التفاهم مع واشنطن يتضمن مرحلة اولى تستمر حتى ايلول 2025 تشمل بغداد والقواعد العسكرية للمستشارين، يليها انسحاب في المرحلة الثانية من ايلول 2025 حتى ايلول 2026 من اقليم كردستان.

◄ الرئيس التركي بأن بلاده تعتبر المسلحين الاكراد، خصوصا قوات سوريا الديموقراطية (قسد)، على ارتباط بحزب العمال الكردستاني المحظور في تركيا.

النقطة الثانية التي تهم الرئاسة التركية، قضية اللاجئين السوريين الذين يقدر بأن عددهم وصل الى نحو 4 ملايين شخص، وكان وجودهم الطويل على الاراضي التركية، اثار الكثير من الانتقادات والقلاقل الاجتماعية، وتحول الى مادة دسمة للتجاذب السياسي خلال الانتخابات التركية وبين القوى والاحزاب، وشكلت احراجا متزايدا لاردوغان.

لكن اردوغان بدا مهتما ايضا بتوثيق العلاقات مع دمشق في مجالات عديدة، حيث اشار الى رغبة انقرة بتطويرها في كل المجالات بدءا من التجارة والطاقة وصولا الى الطيران المدني والصحة والتعليم. الاكثر اهمية من ذلك، ان التقارير تحدثت عن ان اردوغان والشرع بحثا ابرام اتفاق للدفاع المشترك، يشمل انشاء قواعد تركية في وسط سوريا ونشر 50 مقاتلة "اف 16" فيها، لتكون قوة جوية موقتة لسوريا الى حين اعادة بناء اسطولها، وتدريب الجيش السوري الجديد. وبحسب وزير الدفاع التركي يشار غولر، فان الجيش التركي قادر على "تقديم الدعم لانشاء جيش جديد في سوريا".

صحيح ان وكالة "رويترز" ووسائل اعلام تركية تحدثت عن رغبة اردوغان في اقامة قواعد عسكرية في عمق البادية السورية، ويعتقد ايضا انها ستقام في ريف حمص، وان السلطات السورية طلبت من تركيا تزويدها بطائرات مسيرة متطورة وانظمة رادار وانظمة حرب الكترونية، الا ان مصدرا في وزارة الدفاع التركية بدا كأنه ينفي ذلك - اقله الان - حين دعا الى التعامل مع اخبار مثل ادعاءات تأسيس القاعدتين، بحذر وقراءة محتواها بعناية، لافتا الى انه من المبكر جدا الحديث عن مثل هذه القضايا.

مع ذلك، فان الشرع اضاف ابعادا اخرى للعلاقة عندما قال "نعمل معا على بقية الملفات الاستراتيجية الكبرى، وعلى رأسها بناء استراتيجيا مشتركة لمواجهة التهديدات الامنية في المنطقة، وبما يضمن امنا واستقرارا لسوريا وتركيا"، وحث اردوغان على "ضرورة الضغط الدولي على اسرائيل للانسحاب من المنطقة العازلة في جنوب سوريا وتطبيق اتفاق 1974".

يضاف الى كل ذلك، ان تركيا مهتمة بانخراطها الكبير في مشاريع اعادة الاعمار في سوريا التي نكبت خلال الحرب. وهي كعكة مهمة ستستفيد منها الشركات التركية المتعددة الاختصاص، حيث يقدر بعض الخبراء بأن كلفة اعادة الاعمار قد تحتاج الى اكثر من 300 مليار دولار. مع ذلك، فان الملف الكردي يظل الاكثر اهمية بالنسبة الى تركيا، ذلك انها تعتبر انه الفرصة مواتية لحسم هذه القضية الملتهبة، ليس فقد على حدودها الجنوبية مع سوريا والعراق، وانما في الداخل التركي. ان دفع الشرع لمساعد انقرة على التعامل مع المشهد الكردي في شرق نهر الفرات، قد يعجل في تحويل المعركة بين تركيا وبين الاكراد، الى معركة اقتتال سوري داخلي، وتكون الفرصة سانحة لانقرة للتدخل لحسمها. لكن ذلك ايضا قد يفتح الباب امام فصل جديد من فصول الحرب الاهلية السورية.